فاصرف نفسك ـ تولّى اللهُ رشدَكَ ـ عن علوم النَّوْكىٰ ، وتكلُّفِ البطّالين ؛ فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعنيهِ »(١) .

ثم اجعل ما مَنَّ اللهُ به عليك من صحة القريحة ، وسرعة الخاطر مصروفاً إلىٰ علم ما يكون إنفاقُ خاطرك فيه لك مذخوراً ، وكَدُّ فكرك فيه مشكوراً ؛ فقد روىٰ سعيد بن أبي هند ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ : الصحةُ والفراغُ »(٢) .

ونحن نستعيذ بالله تعالىٰ من أن نغبنَ فضلَ نعمته علينا ، ونجهلَ نفعَ إحسانه إلينا ، وقد قيل في منثور الحكم : (من الفراغ تكون الصَّبوة)(٣) .

وقال بعض البلغاء : (مَن أمضىٰ يومه في غير حقٍّ قضاه ، أو فرضٍ أدّاه ، أو مجدٍ أثّله ، أو حمدٍ حصَّله ، أو خيرٍ أسَّسه ، أو علمٍ اقتبسه . . فقد عقَّ يومه ، وظلم نفسه)(٤) .

وقال بعض الشعراء(٥) : [من الوافر]

لقد هاجَ الفراغُ عليكَ شُغْلاً ... وأسبابُ البَلاءِ من الفراغِ

فهٰذا تعليلُ ما في الكلام من الأسباب المانعة من فهم معانيه حتىٰ خرج بنا الاستيفاءُ إلى الإطالة ، والكشفُ إلى الإغماض .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلةٍ في

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٦٤١٢) ، والترمذي (٢٣٠٤) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٨) ، و« الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٥) ، والصبوة : جهلة الفتوة .
(٤) أورده في « الكشكول » (١/٢٢٦) منسوباً لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وغرض المؤلف أن الإلغاز ليس من أحد هٰذه الأمور ؛ فالاشتغال به ظلم .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٣٩٩) .

المعنى المستودَع . . **فلا يخلو حال المعنىٰ من ثلاثة أقسام** : إمّا أن يكون مستقلاً بنفسه ، أو يكون مقدِّمةً لغيره ، أو يكون نتيجةً من غيره .

ـ **فأما ما يكون مستقلاً بنفسه** . . فضربان : جليّ وخفيّ .

فأمّا الجليُّ : فهو يسبق إلىٰ فهم متصوِّره من أول وهلة ، وليس هو من أقسام ما يُشكل علىٰ ذي تصوُّرٍ .

وأمّا الخفيُّ : فيحتاج في إدراكه إلىٰ زيادةِ تأمل ، وفضلِ معاناة ؛ لينجليَ عمّا أُخفي ، وينكشفَ عمّا أغمض ، **وباستعمال الفكر فيه** يكون الارتياضُ به ، وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ، ويقرب منه ما بعُد ؛ **فإنَّ للرياضة جراءةً ، وللدُّرْبةِ تأثيراً** .

ـ **وأمّا ما كان مقدِّمةً لغيره** . . فضربان :

أحدهما : أن تقوم المقدِّمة بنفسها ، وإن تعدَّتْ إلىٰ غيرها . . فيكون الكلام كالمستقل بنفسه في تصوُّره وفهمه وإن كان مستدعياً لنتيجته .

والثاني : أن يكون مفتقراً إلىٰ نتيجته(١) ، فيتعذَّر فهم المقدِّمة إلا بما يتعقبها من النتيجة ؛ لأنها تكون بعضاً منه ، **وتبعيضُ المعنىٰ أشكلُ له** ، وبعضه لا يُغني عن كلِّه .

ـ **وأمّا ما كان نتيجةً لغيره** : فهو لا يُدرَكُ إلا بأوله ، ولا يُتصوَّر علىٰ حقيقته إلا بمقدِّمته ، والاشتغالُ به قبل المقدِّمة عناءٌ ، وإتعابُ الفكر في استنباطه قبل قاعدته أذاءٌ(٢) .

فهـٰذا يوضح تعليل ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها .

* * *

وأمّا القسم الثالث : وهو أن يكون السبب المانع لعلة في المستمع . . **فذلك ضربان** : **أحدهما** : من ذاته ، **والثاني** : من طارىء طرأ عليه .

---

(١) قوله : (والثاني : أن يكون) أي : فهم المعنىٰ (مفتقراً إلىٰ نتيجة) .
(٢) أي : فلا فائدة ؛ كترغيب الضرير في تعليم الكتابة ، والأخرس على الخطابة .

فأمّا ما كان من ذاته . . فيتنوع نوعين : أحدهما : ما كان مانعاً من تصوّر المعنىٰ وفهمه ، والثاني : ما كان مانعاً من حفظه بعد تصوُّره وفهمه .

فأمّا المانعُ من تصوُّر المعنىٰ وفهمه . . فهو البلادة وقلّة الفطنة ، وهو الداءُ العَياءُ ، وقد قال بعض الحكماء : (إذا فَقَدَ العالمُ الذهنَ . . قلَّ على الأضداد احتجاجُه ، وكثر إلى الكتب احتياجُه)[1] .

وليس لمن بُلي بهٰذا إلا الصبر والإقلال ؛ لأنَّه على القليل أقدرُ ، وبالصبر أحرىٰ أن ينالَ ويظفر ، وقد قال بعض الحكماء : (قدِّمْ لحاجتك بعضَ لَجاجتك) .

وليس يقدر على الصبر مَنْ هٰذه حالُه إلا أن يكون غالبَ الشهوة ، بعيدَ الهمة ، فيُشعرُ قلبَه الصبرَ لقوّة شهوته ، ويكلِّف جسدَه احتمالَ التعب لبُعد همّته ، فإذا تلوَّح له المعنىٰ بمساعدة الشهوة . . أعقبه ذلك إلحاحَ الآملين ، ونشاطَ المدرِكين ، فقلَّ عنده كلُّ كثير ، وسهل عليه كلُّ عسير .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنّكم لا تنالونَ ما تحبُّونَ إلا بالصبرِ علىٰ ما تكرهونَ ، ولا تبلغونَ ما تهوونَ إلا بترك ما تشتهونَ »[2] .

وقيل في منثور الحكم : (أتعِبْ قدمَكَ ، فكمْ تعبٍ قدَّمكَ)[3] .

وقال بعض البلغاء : (إذا اشتدَّ الكَلَفُ . . هانت الكُلَفُ)[4] .

وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام[5] : [من البسيط]

لا تعجـزَنَّ ولا تـدخُلْـكَ مَضْجَـرةٌ ... فالنُّجْحُ يَهلِكُ بينَ العجزِ والضَّجَرِ

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ٩٨) .

(٢) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٦٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٥٢) من قول سيدنا عيسىٰ عليه السلام .

(٣) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٦/ ١٢٩) من قول عبد الحميد .

(٤) الكَلَف : العشق والمحبة ، والكُلَف ـ جمع كُلْفة ـ : المشقة .

(٥) البيت في « ديوانه » (ص١١٨) ؛ وفيه : (لا تعجزن ولا يعجزك مطلبها) أي : الحاجات .

وأمّا المانعُ من حفظه بعد تصوُّره وفهمه . . فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير والإهمال والتواني ، فينبغي لمن بُلي به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ، ويوقظ غفلته بإدامة النظر ، فقد قيل : (**لن يدرك العلمَ مَن لا يُطيل درسَه ، ويُكدُّ نفسَه**)[1] .

وكثرةُ الدرس كَدُودٌ ، لا يصبر عليه إلا مَن يرى العلمَ مَغنماً ، والجهالةَ مَغرماً ، **فيحتمل تعب الدرس** ؛ **ليدرك راحةَ العلم** ، وتنتفي عنه مَعرَّةُ الجهل ، فإنَّ نيلَ العظيم بأمر عظيم ، وعلىٰ قدر الرغبة يكون الطلب ، وبحسَب الراحة يكون التعب .

وقد قيل : (**علّةُ الراحةِ قلّةُ الاستراحةِ**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**أكملُ الراحة** : ما كانت عن كدِّ التعب ، **وأعزُّ العلم** : ما كان عن ذلِّ الطلب) .

وربّما استثقل المتعلِّم الدرس والحفظ ، واتّكل بعد فهم المعاني على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة إليها ، **فلا يكون إلا كَمن أطلق ما صاده** ؛ ثقةً بالقدرة عليه بعد الامتناع منه ، فلا تُعقِبُه الثقةُ إلا خجلاً ، والتفريطُ إلا ندماً .

وهٰذه حالٌ قد يدعو إليها أحدُ ثلاثة أشياء : إمَّا الضجرُ من معاناة الحفظ ومراعاته ، أو طولُ الأمل في التوفُّر عليه عند نشاطه ، أو فسادُ الرأي في عزيمته ، **وليس يعلم أن الضَّجُورَ خائبٌ** ، وأنَّ الطويلَ الأملِ مغرورٌ ، **وأنَّ الفاسدَ الرأيِ مصابٌ** ، والعربُ تقول في أمثالها : (**حرفٌ في قلبك خيرٌ من ألفٍ في كتبك**)[3] .

وقالوا : (**لا خيرَ في علمٍ لا يعبرُ معك الواديَ ، ولا يعمرُ بك الناديَ**)[4] .

---

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٠٢) .

(٢) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٦/ ١٢٩) .

(٣) أورد نحوه في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٨) من قول أعرابي : (حرف في قلبك خير من عشرة في طومارك) ، والطومار : الصحيفة .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٠) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٩٩) .

وأُنشِدتُ عن الربيع للشافعي رحمهما الله تعالىٰ[1] : [من البسيط]

عِلْمي معي حيثُما يمَّمتُ يتبعُني　　قلبـي وعـاءٌ لـه لا بطـنُ صُنـدوقِ
إنْ كنتُ في البيت كان العلْمُ فيه معي　　أو كنتُ في السُّوقِ كان العلْمُ في السُّوقِ

وربَّما عُنِي المتعلِّمُ بالحفظ من غير تصوُّر ولا فهم ؛ حتىٰ يصيرَ حافظاً لألفاظ المعاني قيِّماً بتلاوتها وهو لا يتصوَّرها ، ولا يفهم ما تضمَّنها ، يروي بغير رَوِيّة ، ويُخبر عن غير خِبرة ، فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهةً ، ولا يؤيِّد حجةً .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « هِمّةُ السُّفَهاءِ الروايةُ ، وهِمّةُ العُلَماءِ الرعايةُ »[2] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (كونوا للعلم رُعاةً ، ولا تكونوا له رُواةً ؛ فقد يَرعَوِي مَن لا يَروي ، ويَروي مَن لا يَرعَوِي)[3] .

وحدَّث الحسنُ البصريُّ بحديثٍ ، فقال له رجلٌ : (يا أبا سعيد ؛ عمَّن ؟ فقال : ما تصنعُ بـ« عمَّن ؟ » أمّا أنت.. فقد نالتك عظتُه ، وقامت عليك حجّتُه)[4] .

وربَّما اعتمد علىٰ حفظه وتصوُّره ، وأغفل تقييدَ العلم في كتبه ؛ ثقةً بما استقرَّ في نفسه ، وهـٰذا خطأ منه ؛ لأن التشكُّكَ معترض ، والنسيان طارىء ، وقد روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « قَيِّدوا العلْمَ بالكتاب »[5] .

وروي أنَّ رجلاً شكا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم النسيانَ ، فقال :

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص١٠٣) .
(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ١٨٣) من قول الحسن رحمه الله .
(٣) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٦٩٨) .
(٤) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ١٣٧) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ٣٥٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٣٠٦) .

« استعمِلْ يدَكَ »[1] أي : اكتبْ حتىٰ ترجعَ إذا نسيتَ إلىٰ ما كتبتَ .

وقد قال الخليل بن أحمد : (**اجعلْ ما في الكتب رأسَ المال ، وما في القلب النفقةَ**)[2] .

وقال مهبوذ : (لولا ما عقدَتْه الكتبُ من تجارب الأوَّلين .. لانحلَّ مع النسيان عقودُ الآخرين)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**إنَّ هـٰذه الآدابَ نوافرُ تنِدُّ عن عقل الأذهان ، فاجعلوا الكتبَ عليها حُماةً ، والأقلامَ لها رُعاة**)[4] .

وأمّا طارىءُ النسيانِ .. فنوعان[5] :

أحدهما : شُبَهٌ تعترض المعنىٰ فتمنع من تصوُّره ، وتدفع عن إدراك حقيقته ، فينبغي أن يزيل تلك الشُّبَهَ عن نفسه بالسؤال والنظر ؛ ليصلَ إلىٰ تصور المعنىٰ وإدراك حقيقته ؛ ولذلك قال بعض العلماء : (**لا تُخلِ قلبك من المذاكرة فيعودَ عقيماً ، ولا تُعفِ طبعَك عن المناظرة فيصيرَ سقيماً**)[6] .

وقال بشار بن برد[7] : [من الطويل]

شفاءُ العمىٰ طولُ السؤالِ وإنّما ... دوامُ العمىٰ طولُ السكوتِ على الجهلِ

فكُنْ سائلاً عمّا عَناكَ فإنَّما ... دُعيتَ أَخا عقْلٍ لتبحثَ بالعقلِ

والثاني : أفكار تُعارض الخاطر ، فيذهل عن تصوُّر المعنىٰ ، وهـٰذا سببٌ قلَّما يَعرىٰ منه أحد ، لا سيَّما فيمَن انبسطت آمالُه ، واتَّسعت أمانيه ، وقد يقلُّ فيمَن لم يكن له في غير العلم أَرَبٌ ، ولا فيما سواه همّةٌ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أورده الثعالبي في « ثمار القلوب » (١/ ٤٩٣) .

(٣) أورده ابن النديم في « الفهرست » (ص١٣) .

(٤) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ١٤٧) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٩٩) .

(٥) قوله : (وأما طارىء النسيان) معطوف علىٰ قوله : (**فأما ما كان مانعاً من تصور المعنىٰ .. فهو البلادة**) وهـٰذا هو القسم الثاني من السبب المانع في المستمع .

(٦) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٥٠) من قول ابن المقفع .

(٧) البيت في ملحقات « ديوانه » (٤/ ١٦٣) ، ونسبه ياقوت في « معجم الأدباء » (٦/ ٦٢٤) لمحمد بن الحسين الطبري المعروف بابن نجدة ، وأراد بالعمى الجهل ؛ لأنه عمىٰ بصيرة .

فإنْ طرأت على الإنسان . . لم يقدر علىٰ مكابرة نفسه على الفهم ، وغلبة قلبه على التصوُّر ؛ لأنَّ القلب مع الإكراه أشدُّ نفوراً ، وأبعدُ قبولاً ، وقد جاء في الأثر : (أنَّ القلبَ إذا أُكرِهَ . . عَمِيَ)(١) .

ولـٰكن يعملُ علىٰ دفع ما طرأ عليه من همٍّ مذهل ، أو فكر قاطع ؛ ليستجيبَ له القلبُ مطيعاً ، وقد قال الشاعر(٢) : [من الطويل]

وليس بمُغنٍ في المودّةِ شافعٌ إذا لم يكنْ بين الضُّلوعِ شفيعُ

وقال بعض الحكماء : (إنَّ لهـٰذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش ، فتألَّفُوها بالاقتصاد في التعليم ، والتوسُّط في التقويم ؛ لتحسنَ طاعتُها ، ويدومَ نشاطُها) .

فهـٰذا تعليلُ ما في المستمع من الأسباب المانعة من فهم المعاني .

وهـٰهنا قسمٌ رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ، ولـٰكنَّه قد يَعرىٰ من بعض الكلام ؛ فلذلك لم نُدخله في جملة أقسامه ، ولم نستجز الإخلالَ بذكره وهو الخطُّ ؛ فإنَّ من الكلام ما كان مسموعاً لا يُحتاج في فهمه إلىٰ تأمُّل الخطّ به ، والمانع من فهمه هو علىٰ ما ذكرناه من أقسامه .

ومنه ما كان مستودعاً بالخطِّ ، محفوظاً بالكتابة ، مأخوذاً بالاستخراج ، فكان الخطُّ حافظاً له ، ومعبِّراً عنه ، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال : (يعني : الخطَّ)(٣) .

ورُوي عن مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال : (الخطّ ، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يعني : الخط)(٤) .

---

(١) عزاه في « كنز العمال » (١/ ٣٩٨) إلىٰ محمد بن عثمان الأذرعي في كتاب « الوسوسة » من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أورده التوحيدي في « الصداقة والصديق » (ص٣٢٥) بدون نسبة .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٥٤) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٣/ ٣/ ١١٧) ، والدارمي في « مسنده » (٣٣٧٧) .

والعرب تقول : (**الخطُّ أحدُ اللسانَين**[1] ، وحسنُه إحدى الفصاحتَين)[2] .

وقال جعفر بن يحيىٰ : (**الخطُّ سِمْطُ الحكمة** ، به تفصل شذورُها ، وينظم منثورُها)[3] .

وقال ابن المقفَّع : (**اللسانُ مقصورٌ على القريب الحاضر** ، والعلمُ بالخطِّ على الشاهد والغائب ، وهو للغابر الكائن مثلُه للقائم الراهن)[4] .

وقال حكيم الروم : (**الخطُّ هندسةٌ رُوحانية وإنْ ظهر بآلة جسدانية**)[5] .

وقال حكيم العرب : (**الخطُّ أصيلٌ في الروح وإنْ ظهر بحواسِّ الجسد**)[6] .

* * *

واختُلف في أول مَن كتب الخطَّ :

فذكر كعب الأحبار : (**أنَّ أولَ مَن كتب : آدم عليه السلام ، كتب سائر الكتب قبل موته بثلاث مئة سنة في طين ثم طبخه ، فلمَّا غرقت الأرض في زمن نوح عليه السلام . . بقيت الكتابةُ ، فأصاب كلّ قوم كتابهم ، وبقي الكتاب العربي إلىٰ أن خصَّ الله تعالىٰ به إسماعيلَ عليه السلام ، فأصابه وتعلَّم العربيةَ**)[7] .

وحكى ابن قتيبة : (**أنَّ أول مَن كتب : إدريسُ عليه السلام**)[8] .

وكانت العرب تعظِّم قدرَ الخطِّ ، وتعدُّه من أجلِّ نفع ، حتىٰ قال عكرمة : (بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف درهم ، **حتىٰ إنَّ الرجلَ ليُفادىٰ به علىٰ أن يعلِّمَ الخطَّ**)[9] لما هو مستقر في نفوسهم من عِظَم خطره ، وجلالة قدره ، وظهور نفعه وأثره .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٧٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٥) .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٧/ ١٤) من قول سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٣) أورده في « زهر الآداب » (١/ ٣٦٦) ، و« نهاية الأرب » (٧/ ١٤) .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٨٠) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٥) من قول إقليدس ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٩٩) .

(٦) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/ ٢) من قول النَّظَّام .

(٧) أورده ابن فارس في « الصاحبيّ » (ص١٠) .

(٨) عيون الأخبار (١/ ٤٣) .

(٩) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٢٣) .

وقد قال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ فوصف نفسه بأنه علَّم بالقلم ؛ كما وصف نفسه بالكرم ، واعتدَّ بذلك في نِعَمه العِظام ، ومن أياديه الجِسام ؛ حتىٰ أقسم به في كتابه فقال تعالىٰ : ﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُخَطُّ بالقلم .

واختُلف في أول مَن كتب بالعربية :

فذكر كعب الأحبار : (أن أول من كتب بها : آدم عليه السلام ، ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل عليه السلام)(١) .

وحكى ابن عباس رضي الله عنهما : (أنَّ أولَ مَن كتب بها ووضعها : إسماعيلُ عليه السلام علىٰ لفظه ومنطقه)(٢) .

وحكىٰ عروةُ بن الزبير رضي الله عنه : (أنَّ أولَ مَن كتب بها : قومٌ من الأزد الأوائل ، أسماؤهم : أبجد وهوّز وحطّي وكلمن وسعفص وقرشت ، وكانوا ملوكَ مدين)(٣) .

وحكى ابن قتيبة في « المعارف » : (أنَّ أول مَن كتب بالعربية : مُرامرُ بن مروة من أهل الأنبار ، ومن الأنبار انتشرت)(٤) .

وحكى المدائني : (أنَّ أولَ من كتب بها : مُرامر بن مروة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ؛ فمُرامرٌ وضع الصُّوَرَ ، وأسلمُ فصل ووصل ، وعامرٌ وضع الإعجامَ)(٥) .

ولمّا كان الخطُّ بهـٰذه الحال . . وجب علىٰ مَن أراد حفظَ العلم به أن يُعنىٰ بأمرين :

أحدهما : حفظُ تقويم الحروف علىٰ أشكالها الموضوعة لها .

---

(١) أورده في « الصاحبيّ » (ص١٠) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٥٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٠٣) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٩٧) .

(٤) المعارف (ص٥٥٢) ؛ وفيه وفي (هـ) : (مرامر بن مرة) .

(٥) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/ ١٢) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٩٧) ، وفي (د ، هـ) : (وعامر بن خدرة) .

والثاني : ضبطُ ما اشتبه منها بالنقط والأشكال المميِّزة لها .

ثم ما زاد علىٰ هـٰذين من تحسين الخطِّ ومَلاحةٍ تظهر . . فإنَّما هو زيادة حِذْقٍ بصنعته ، وليس بشرط في صحته .

وقال علي بن عبيدة : (**حسنُ الخطِّ لسانُ اليد ، وبهجةُ الضمير**)[1] .

وقال أبو العباس المبرِّد : (**رداءةُ الخطِّ زمانةُ الأدب**)[2] .

وقال عبد الحميد : (**البيانُ في اللسان والبَنان**) .

وأنشدني بعض أهل الأدب لأحد شعراء البصرة[3] : [من الكامل]

اعــذرْ أخــاكَ علــىٰ رداءةِ خطِّـهِ ... واغفــرْ رداءتَــهُ لجُـودةِ ضبطِـهِ

واعلمْ بأنَّ الخطَّ ليس يُرادُ مِن ... تــركيبــهِ إلاّ تبيُّــنُ سِمْطــهِ

فإذا أبانَ عن المعاني لم يكنْ ... تحسينُــه إلا زيــادةَ شــرطــهِ

ومحلُّ ما زاد على **الخطِّ** المفهوم من تصحيح الحروف وحُسن الصورة . . محلُّ ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الألفاظ وصحّة الإعراب ؛ ولذلك قالت العرب : (**حسنُ الخط إحدى الفصاحتين**)[4] .

وكما أنَّه لا يُعذَر مَن أراد التقدُّمَ في الكلام أن يطَّرِحَ الفصاحة والإعراب وإنْ فهم وأفهم . . **كذلك لا يُعذَر مَن أراد التقدُّمَ في الخطِّ** أن يطَّرِحَ تصحيح الحروف وتحسين الصور وإن فهم وأفهم .

وربَّما تقدَّم بالخطِّ مَن كان الخطُّ أجلَّ فضائله ، وأشرفَ خصائله ، حتىٰ صار علَماً مشهوراً ، وسيداً مذكوراً ، **غير أن العلماء اطَّرحوا صرفَ الهمَّة إلىٰ تحسين الخط** ؛ لأنَّه يشغلهم عن العلم ، ويقطعهم عن التوفُّر عليه ؛ **ولذلك تجد خطوط العلماء في الأغلب رديئةً لا تُلحَظ إلا مَن أسعده القضاء** .

---

(١) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/ ٢) و« العقد الفريد » (٤/ ١٧٢) من قول إبراهيم بن محمد الشيباني .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٥) .

(٣) أورد الأبيات الثعالبي في « يتيمة الدهر » (١/ ٥٢٢) لأبي بكر الموسوس .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (٧/ ١٤) من قول سيدنا علي كرم الله وجهه .

وقد قال الفضل بن سهل : (من سعادة المرء : أن يكون رديء الخط ؛ ليكون الزمان الذي يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر) .

وليست رداءةُ الخطِّ هي السعادةَ ، وإنَّما السعادةُ ألا يكون له صارفٌ عن العلم ، وعادةُ ذي الخطِّ الحسن : أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم ، فمن هٰذا الوجه صار برداءة خطِّه سعيداً وإنْ لم تكن رداءةُ الخطِّ سعادةً .

وإذا كان ذلك كذلك . . فقد يعرض للخطِّ أسبابٌ تمنع من قراءته ومعرفته ؛ كما يعرض للكلام أسبابٌ تمنع من فهمه وصحّته .

والأسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمَّنه قد تكون من ثمانية أوجه :

أحدها : إسقاط ألفاظٍ من أثناء الكلام يصيرُ الباقي بها مبتوراً ؛ لا يُعرَف استخراجه ، ولا يُفهَم معناه ، وهٰذا يكون إمَّا من سهو الكاتب ، وإمَّا من فساد نقله .

وهٰذا يسهل استنباطه علىٰ مَن كان مُرتاضاً بذلك النوع ، فيستدلُّ بحواشي الكلام وما سلم منه علىٰ ما سقط أو فسد ، لا سيَّما إذا قلَّ ؛ لأنَّ الكلمةَ تستدعي ما يليها ، ومعرفةُ المعنىٰ توضح عن الكلام المترجِم عنه ما شذَّ من ألفاظه .

فأمّا مَن كان قليلَ الارتياض بذلك النوع . . فإنَّه يصعب عليه استنباط المعنىٰ منه ، لا سيَّما إذا كان كثيراً ؛ لأنَّه يحتاج في فهم المعاني إلى الفكر والروِيّة فيما قد أهمله في الكِتْبةِ ، وإذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجِم عن المعنىٰ . . قصر فهمه عن إدراكه ، وضلَّ فكره عن استنباطه .

والوجه الثاني : زيادة ألفاظ في أثناء الكلام يُشكل بها معرفةُ الصحيح غير الزائد وتمييزه من السقيم الزائد ، فيصير الكلُّ مشكلاً ، وهٰذا لا يكاد يوجد كثيراً ، إلا أن يقصدَ الكاتب تعميةَ كلامه ، فيدخلَ في أثنائه ما يمنع من فهمه ، فيصيرُ ذلك رمزاً يُعرف بالمواضعة .

فأمّا وقوعُه سهواً . . فقد يكون بالكلمة والكلمتين ، وذلك لا يمنع من فهمه على المُرتاض وغيره .

والوجه الثالث : إسقاط حروف من أثناء الكلمة **تمنع من استخراجها على الصحّة** ، وقد يكون هـٰذا **تارةً من السهو** فيقلُّ ، **وتارةً من ضعف الهجاء** فيكثرُ ، والقول فيه كالقول في الوجه الأول .

والوجه الرابع : زيادة حروف في أثناء الكلمة **يشكل بها معرفةُ الصحيح من حروفها** ، وهـٰذا يكون **تارةً من سهو الكاتب** فيقلُّ ، ولا يمنع من استخراج الصحيح ، ويكون **تارةً لتعميةٍ ومُواضعةٍ** يقصد بها الكاتبُ إخفاءَ غرضه فيكثرُ كالتراجم ، ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني .

والوجه الخامس : وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة ؛ **فيدعو ذلك إلى الإشكال** ؛ لأنَّ الكلمة ينبِّه عليها وصلُ حروفها ، ويمنع فصلُها من مشاركة غيرها .

فإنْ كان **ذلك** من **سهو** . . قلَّ وسهل استخراجُه ، **وإنْ** كان **ذلك** من **قلَّةِ معرفةٍ بالخطِّ أو مَشْقاً تسبق به اليدُ** . . كثر فصعب استخراجه ، **إلا على المُرتاض به** ؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**شرُّ الكتابة المَشْقُ ؛ كما شرُّ القراءة الهَذْرَمةُ**)[1] .

وإن كان للتعمية والرمز . . لم يُعرَف إلا بالمُواضعة .

والوجه السادس : تغيير الحروف عن أشكالها ، وإبدالها بأغيارها ، حتىٰ يكتب الحاء علىٰ شكل الباء ، والصاد علىٰ شكل الراء ، **وهـٰذا يكون في رموز التراجم** ، لا يوقف عليه إلا بالمُواضعة ، إلا لمَن زاد فيه الذكاء فقدر على استخراج المُعمَّىٰ .

والوجه السابع : ضعف الخطِّ عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة ، وإثباتُها على الأوصاف الخفيّة ، **حتىٰ لا تكادُ الحروفُ تمتاز عن أغيارها** ، فتصير

---

(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٤٠٣) ، **والمشق** : سرعة الكتابة .

العين الموصولة كالفاء ، والمفصولة كالحاء ، وهـٰذا يكون من رداءة الخط ، وضعف اليد .

واستخراجُ ذلك ممكنٌ بفضل المُعاناة وشدّة التأمُّل وإنْ كان ربما أضجرَ قارئه ، وأوهىٰ مُعانيَه ؛ ولذلك قيل : (إن الخطَّ الحسنَ ليزيد الحقَّ وضوحاً)[1] .

والوجه الثامن : إغفال النَّقْط والشَّكْل اللذين تتميز بهما الحروف المشتبهة ، وهـٰذا أيسرُ أمراً ، وأخفُّ حالاً ؛ لأنَّ مَن كان متميِّزاً بصحّة الاستخراج ومعرفة الخطِّ . . لم تخفَ عليه معرفةُ الخطِّ وفهمُ ما تضمَّنه مع إغفال النَّقط والشَّكل .

بل قد استقبح ذلك الكُتَّابُ في المكاتبات ، ورأَوه من تقصير فهم الكاتب ، أو سوء ظنِّه بفهم المكاتَب ، وكان استقباحُهم له في مكاتَبة الرؤساء أكثرَ .

وقد حكىٰ قدامة بن جعفر : أنَّ بعض كتَّاب الدواوين حاسب عاملاً ، فشكا العامل منه إلىٰ عبيد الله بن سليمان ، وكتب رقعةً يذكر فيها احتجاجاً لصحّة دعواه ، ووضوح شكواه ، فوقَّع فيها عبيد الله بن سليمان : (هـٰذا هذا) ، فأخذها العامل وقرأها ، فظنَّ أنَّ عبيدَ الله أراد : (هـٰذا هـٰذا) إثباتاً لصحّة دعواه وصدق قوله ؛ كما يقال في إثبات الشيء : (هو هو) ، فحمل الرُّقعةَ إلىٰ كاتب الديوان وأراه خط عبيد الله ، وقال : إنَّ عبيد الله قد صدَّق قولي ، وصحَّح ما ذكرتُ ، فخفي على الكاتب ذلك ، وأُطيف به علىٰ كتَّاب الدواوين ، فلم يقفوا علىٰ مراد عبيد الله ، فرُدَّ إليه ليُسأَلَ عن مراده ، فشدَّد عبيد الله الكلمة الثانية ، وكتب تحتها : (واللهُ المستعانُ) استعظاماً منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج إلىٰ إبانته بالشكل[2] .

فهـٰذه حال الكتَّاب في استقباحهم إعجام المكاتبات بالنَّقط والشَّكل .

---

(1) أورده في « نهاية الأرب » (٧/ ١٤) ، و« صبح الأعشىٰ » (٣/ ٢٠) من قول سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(2) القصة في « زهر الأكم » (٢/ ٢١٥) ، وهذا ـ الثانية ـ بالقصر : أي : هذَّاءٌ ؛ بالمد .

فأمّا غيرُ المكاتبات من سائر العلوم . . فلم يرَوه قبيحاً ، بل استحسنوه ، لا سيَّما في كتب الأدب التي يُقصد بها معرفة صيغة الألفاظ وكيفية مخارجها ؛ مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب ، فإنَّ الحاجةَ إلىٰ ضبطها بالشكل والإعجام أكثرُ ، وهي فيما سواه من العلوم أيسرُ ، وقد قال الثوريُّ : (الخُطوطُ المُعجَمة كالبُرود المُعلَمة)(١) .

وقال بعض البلغاء : (إعجام الخطِّ يمنع من استعجامه ، وشكلُه يؤمِن من إشكاله)(٢) .

وقال بعض الأدباء : (ربَّ علمٍ لم تُعجَم فصوله ، فاستعجم محصولُه)(٣) .

وكما استقبح الكتّابُ الشَّكْلَ والإعجامَ في المكاتَبات وإنْ كان في كتب العلوم مستحسناً . . فكذلك استحسنوا مَشْقَ الخطِّ في المكاتَبات وإنْ كان في كتب العلوم مستقبحاً .

وسببُ ذلك : أنَّهم لفرط إدلالهم بالصنعة وتقدُّمهم في الكتابة يكتفون بالإشارة ، ويقتصرون على التلويح ، ويرَون الحاجة إلى استيفاء شروط الإبانة تقصيراً ، ولفضل ما يعتقدونه من التقدُّم بهٰذه الحال رأَوا ما نبَّه عليه سوادُ المداد أثراً جميلاً ، وعلى الفضل والتخصُّص دليلاً .

حُكي : أنَّ عبيد الله بن سليمان رأىٰ علىٰ بعض ثيابه أثرَ صُفْرة ، فأخذ من مِداد الدَّواة فطلاه به ، ثم قال : (المِدادُ بنا أحسنُ من الزَّعفران) ، وأنشد : [من الخفيف]

إنَّما الزعفرانُ عِطْرُ العَذارىٰ ... ومِدادُ الدُّوِيِّ عِطْرُ الرِّجالِ(٤)

فهٰذه جملة كافية في الإبانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) ، و« صبح الأعشىٰ » (٣/١٤٩) دون نسبة .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) ، و« زهر الآداب » (١/١٤٤) .
(٣) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/١٤٩) ، من قول أبي مالك الحضرمي ، و« زهر الأكم » (٢/٢١٦) .
(٤) أورده في « زهر الأكم » (٢/٢٢٣) .

معانيه ؛ لفظاً كان أو خطّاً ، والله وليُّ التوفيق لما يحبُّه ويرضاه .

فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة إنْ تعذَّر عليه فهم المعنىٰ ؛ ليسهلَ عليه الوصول إليه ، **ثم يكون من بعد ذلك سائساً لنفسه** ، مدبِّراً لها في حال تعلُّمه ؛ **فإنَّ للنفس نُفوراً يفضي إلىٰ تقصير** ، ووفُوراً يؤول إلىٰ سَرَف ، وقيادُها عسِرٌ ، **ولها أحوال ثلاث** : فحال عدلٍ وإنصاف ، وحال غلوٍّ وإسراف ، وحال تقصيرٍ وإجحاف .

فأمّا حالُ العدل والإنصاف : فهي أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين ؛ طاعةٍ مُسعِدة ، وشفقةٍ كافّة ، **فطاعتها تمنع من التقصير** ، **وشفقتها تصدُّ عن السَّرَف** ، وهـٰذه أحمدُ الأحوال ؛ لأنَّ ما مُنع من التقصير نامٍ ، وما صُدَّ عن السَّرَف مستديم ، **والنموُّ إذا استدام** . . **فأَخلِقْ به أن يستكملَ !!**

وقال بعض الحكماء : (**إيّاك ومفارقةَ الاعتدال** ؛ فإنَّ المسرفَ مثلُ المقصِّر في الخروج عن الحدّ) .

وأمّا حالُ الغُلوِّ والإسراف : فهي أن تختصَّ النفس بقوى الطاعة ، وتعدمَ قوى الشفقة ، **فيبعثها اختصاص الطاعة** علىٰ إفراغ الجهد ، **ويفضي بها إفراغ الجهد** إلىٰ عجز الكَلال ، **ويؤدِّيها عجز الكَلال** إلى التَّرك والإهمال ، **فتصير الزيادة نقصاناً** ، **والربح خسراناً** .

وقد قالت الحكماء : (**طالبُ العلم وعاملُ البِرِّ كآكل الطعام** ؛ إنْ أخذ منه قُوتاً . . عصمه ، وإنْ أسرف فيه . . أبشمه ؛ وربَّما كان فيه منيّتُه[1] ، **وكآخذ الأدوية التي القصدُ فيها شفاءٌ** ، ومجاوزة الحدِّ فيها السمُّ المُميتُ)[2] .

وأمّا حالُ التقصير والإجحاف : فهي أن تختصَّ النفس بقوى الشفقة ، وتعدم قوى الطاعة ، **فيدعوها الإشفاق إلى المعصية** ، **وتمنعها المعصية** من الإجابة ،

---

(١) **أبشمه الطعام** : أتخمه ، وقد يقتله من شدة الانتفاخ .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٢٧) .

فلا تطلب شارداً ، ولا تقبل عائداً ، ولا تحفظ مستودَعاً ، ومَن لم يطلب الشاردَ ، ويقبل العائدَ ، ويحفظ المستودَعَ . فقد الموجودَ ، ولم يجد المفقودَ ، ومَن فقد ما وجد . . فهو مصابٌ محزون ، ومَن لم يجد ما فقد . . فهو خائبٌ مغبون .

وقد قال بعض الحكماء : (العجزُ مع الواني ، والفوتُ مع التواني)[1] .

وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوتين ، فيكون للنفس طاعةٌ وإشفاقٌ ، وأحدهما أغلبُ من الآخر ؛ فإنْ كانت الطاعةُ أغلبَ . . كانت إلى الوُفور المجاوِز أميَلَ ، وإن كان الإشفاقُ أغلبَ . . كانت إلى التقصير المقصِّر به أقربَ .

فإذا عرف من نفسه قدرَ طاعتها ، وخَبِرَ منها كُنْهَ شفقتها . . راضَ نفسه لتثبتَ علىٰ أحمدِ حالاتها .

وقد أشار إلىٰ ما وصفناه من حال النفس الفرزدقُ في قوله[2] : [من الطويل]

لكلِّ امرىءٍ نفسانِ نفسٌ كريمةٌ ... وأخرىٰ يُعاصِيها الفتىٰ ويُطِيعُها
ونفسُكَ من نفسَيكَ تشفَعُ للنَّدىٰ ... إذا قلَّ من أحرارِهِنَّ شفيعُها

فإنْ أهمل سياستَها ، وأغفل رياضتَها ، ورام أن يأخذَها بالعنف ، ويقهرها بالعَسف . . استشاطت نافرةً ، ولَجَّت معانِدةً ، فلم تنقَدْ إلىٰ طاعة ، ولم تنكفَّ عن معصية .

وقد قال سابق البربريّ : [من البسيط]

إذا زجرتَ لَجوجاً زدتَه علَقاً ... ولجَّتِ النفسُ منه في تماديها
فعُدْ عليه إذا ما نفسُهُ جمحَتْ ... باللِّينِ منكَ فإن اللِّينَ يثنيها

فإنِ استصعب عليه قِيادُ نفسه ، ودام منه نفورُ قلبه مع سياستهما ومعاناة رياضتهما . . تركهما تركَ إراحةٍ ، ثم عاودهما بعد الاستراحة ، فإنَّ إجابتَهما

---

(١) الواني : اسم فاعل من ونى الرجل : إذا فتر ولم يجِدَّ في العمل ، والتواني : الكسل .
(٢) البيتان في « ديوانه » (٢/ ٣٨) .

تسرع ، وطاعتهما ترجع ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **إن القلبَ يموتُ ويحيا ولو بعدَ حينٍ** » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (**للقلوب شهوةٌ وإقبالٌ ، وفترةٌ وإدبارٌ ؛** فأتُوها من قِبَل شهوتها ، ولا تأتوها من قِبَل فترتها)(1) .

وقد قال الشاعر(2) : [من الطويل]

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنْسِهِ ولا القلبُ إلا أنَّه يتقلَّبُ

فأمّا الشروطُ التي يتوفَّر بها **علم الطالب** ، وينتهي معها كمال الراغب ، مع ما يُلاحظ به من التوفيق ، ويُمدُّ به من المعونة . . **فتسعة شروط** :

أحدها : العقل الذي يدرك به حقائقَ الأمور .

والثاني : الفطنة التي يتصوَّر بها غوامضَ العلوم .

والثالث : الذكاء الذي يستقرُّ به حفظُ ما تصوَّره ، وفهمُ ما علمه .

والرابع : الشهوة التي يدوم بها الطلب ، ولا يسرع إليه المللُ .

والخامس : الاكتفاء بمادة تغنيه عن كُلَف الطلب .

والسادس : الفراغ الذي يكون معه التوفُّر ، ويحصل به الاستكثار .

والسابع : عدم القواطع المذهلة ؛ من همومٍ وأشغال وأمراض .

والثامن : طول العمر واتساع المدّة ؛ لينتهي بالاستكثار إلىٰ مراتب الكمال .

والتاسع : الظفر بعالم(3) سمح بعلمه ، متأتٍّ في تعليمه(4) .

---

(1) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ١٣٤) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٥١٩) .

(2) أورد البيت في « سراج الملوك » (٢/ ٧٢٣) .

(3) هنا تبدأ النسخة (ب) .

(4) متأتٍّ : مترفق ، وفي (د) : (متأنٍّ) .

وإذا استكمل هٰذه الشروطَ التسعةَ . . فهو أسعدُ طالبٍ ، وأنجحُ متعلِّمٍ .

وقد قال الإسكندر : (يحتاج طالب العلم إلىٰ أربع : مدّة ، وجِدَة ، وقريحة ، وشهوة) ، وتمامها في الخامسة : معلِّمٌ ناصحٌ .

فَصْلٌ
[في آداب المتعلِّم]

وسأذكر طرفاً مما يتأدَّب به المتعلِّم ، ويكون عليه العالم :

اعلم : أن للمتعلم في زمان تعلُّمه ملَقاً وتذلُّلاً(١) ، إن استعملهما . . غنم ، وإن تركهما . . ندم وحُرم ؛ لأنَّ التملُّقَ للعالم يُظهر مكنونَ علمه ، والتذلُّلَ له سببٌ لإدامة صبره ، **وبإظهار مكنونه تكون الفائدة ، وباستدامة صبره يكون الإكثار .**

وقد روىٰ معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **ليس من أخلاقِ المؤمنِ الملَقُ إلاّ في طلَبِ العلمِ** »(٢) .

وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**ذللتُ طالباً ، فعززتُ مطلوباً**)(٣) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن لم يحتمل ذلَّ التعلُّم ساعةً . . بقي في ذلِّ الجهل أبداً**)(٤) .

وقال بعض حكماء الفرس : (**إذا قعدتَ وأنت صغيرٌ حيثُ تحبُّ . . قعدتَ وأنت كبيرٌ حيثُ لا تحبُّ**)(٥) .

ثم ليعرف له فضل علمه ، وليشكر له جميل فعله ؛ فقد روت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **من وقَّرَ عالماً . . فقد وقَّرَ ربَّه عز وجل** »(٦) .

---

(١) المَلَق : الزيادة في التودد ؛ ليستخرج من الإنسان مراده .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٢٢) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٣٥) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٥) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٧٤) .

(٥) أورده ابن أبي الحديد في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٣٠٠) .

(٦) أورده الديلمي في « الفردوس » (٥٦٢٧) .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه : (**لا يعرفُ فضلَ أهل الفضلِ إلا أهلُ الفضلِ**)[١] .

وقال بعض الشعراء[٢] : [من الكامل]

أكْــرِمْ طبيبَــكَ إنْ أردتَ دواءَهُ ... وكــذا المعلِّــمَ إنْ أردتَ تعلُّمــا
إنَّ المعلِّــمَ والطبيــبَ كــلاهمــا ... لا يَنصحــانِ إذا همــا لــم يُكــرَمــا
فاصبرْ لدائكَ إنْ جفَوتَ طبيبَهُ ... واصبرْ لجهلكَ إنْ جفَوتَ معلِّما

ولا يمنعْه من ذلك علوُّ منزلةٍ ـ إنْ كانت له ـ **وإن كان العالم خاملاً** ؛ فإنَّ العلماء بعلمهم استحقُّوا التعظيمَ ، لا بالقدرة والمال .

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر بن دريد[٣] : [من المنسرح]

لا تَحقــرَنْ عــالمــاً وإنْ خلَقَــتْ ... أثــوابُــهُ فــي عُيــونِ رامقِــهِ
وانظــر إليــهِ بعيــنِ ذي خطَــرٍ ... مُهَــذَّبِ الــرأيِ فــي طــرائِقِــهِ
فــالمِسْــكُ بَيْنــا تــراهُ ممتهَنــاً ... بفِهْــرِ عَطّــارِهِ وســاحِقِــهِ
حتــىٰ تــراه بعــارِضَــي مَلِــكٍ ... أو مَــوضــعِ التــاجِ مــن مَفــارِقِــهِ

وليكنْ مقتدياً بهم في رضيِّ أخلاقهم ، متشبِّهاً بهم في جميل أفعالهم ؛ ليصير لها آلفاً ، وعليها ناشئاً ، ولِمَا خالفها مُجانباً ؛ فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **خيارُ شبابكم المتشبِّهون بشيوخكم** ، وشرُّ شيوخكم المتشبِّهون بشبابكم »[٤] .

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٢٧٧) ، وقال بديع الزمان : (من المتقارب)

مــدحــت الأميــر وأيــامــه ... فضــاءت وجــوهٌ وسيئــت وجــوه
وهــل يجحــد الشمــس إلا العمــيُّ ... وهــل يعــرف الفضــل إلا ذووه

(٢) البيتان الأخيران في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٤) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٠٨) ، والبيت الأول زيادة من (ج ، د) .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص٩٨) ، **والفِهْر** : الحجر قدر ما يدقّ به الجوز ونحوه .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٤١٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَن تشبَّهَ بقومٍ . . فهو منهم »(١) .

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر بن دريد(٢) : [من الرجز]

العالمُ العاقلُ اِبنُ نفسِهِ   أغناهُ جنسُ علمِهِ عن جنسِهِ
كُنِ ابنَ مَن شئتَ وكنْ مُؤدَّباً   فإنَّما المرءُ بفضلِ كَيْسِهِ
وليس مَن تكرِمُهُ لغيرِهِ   مثلَ الذي تكرِمُهُ لنفسِهِ

وليحذرِ المتعلِّمُ التبسُّطَ علىٰ مَن يُعلِّمه وإنْ آنسَه ، والإدلالَ عليه وإنْ تقدَّمت صحبتُه ، فقد قيل لبعض الحكماء : (مَن أذلُّ الناسِ ؟ فقال : عالمٌ يجري عليه حكمُ جاهلٍ)(٣) .

وكلَّمتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جاريةٌ من السَّبْي ، فقال لها : « مَن أنتِ ؟ » فقالت : بنتُ الرجل الجواد حاتم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ارحَمُوا عزيزَ قومٍ ذلَّ ، ارحَمُوا غنياً افتقر ، ارحَمُوا عالماً ضاع بين الجُهّال »(٤) .

ولا يُظهرْ له الاستكفاءَ منه والاستغناءَ عنه ؛ فإنَّ في ذلك كفراً لنعمته ، واستخفافاً بحقِّه .

وربَّما وجد بعض المتعلِّمين قوّةً في نفسه ؛ لجُودة ذكائه وحِدَّة خاطره ، فقصد مَن يعلِّمه بالإعنات له ، والاعتراض عليه ؛ إزراءً به ، وتبكيتاً له ، فيكون كمَن تقدَّم فيه المثل السائر لأبي البطحاء(٥) : [من الوافر]

فيا عجَبًا لمَن ربَّيتُ طفلاً   أُلقِّمُهُ بأطرافِ البَنانِ

(١) رواه أبو داوود (٤٠٣١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٥٤) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص٧٠) .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٣) ، و« ثمار القلوب » (٢/ ٩٤٦) من قول ثمامة بن الأشرس .
(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٥١٤) ، والمرفوع رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١/ ١٦٦) ، والشهاب القضاعي في « مسنده » (٧٣٤) .
(٥) الأبيات أوردها الجاحظ في « المحاسن والأضداد » (ص٤١) ، وفي (د) : (فلما اشتدَّ) .

أُعلِّمُـهُ الـرمـايـةَ كـلَّ يـومٍ فلمّـا استـدَّ سـاعـدُهُ رمـانـي
وكـم علَّمتُـهُ نَظْـمَ القَـوافـي فلمّـا قـال قـافيـةً هجـانـي
أُعلِّمُـهُ الفتـوَّةَ كـلَّ يـومٍ فلمّـا طـال شـاربُـهُ جفـانـي

وهٰـذا مـن مصـائـب العلمـاء وانعكـاس حظـوظهـم أنْ يصيـروا عنـد مَـن علَّمـوه مستجهَليـن ، وعنـد مَـن قـدَّمـوه مسترذَليـن ، وقـد قـال صـالـح بـن عبد القدوس[1] : [من الطويل]

وإنَّ عنـاءً أنْ تُعلِّـمَ جـاهـلاً فيحسبَ جهـلاً أنَّـه منـكَ أفهـمُ
متىٰ يبلـغُ البنيـانُ يـومـاً تمـامَـهُ إذا كنـتَ تبنيـهِ وغيـرُكَ يهـدِمُ
متىٰ ينتهي عن سيِّئٍ مَن أتىٰ به إذا لـم يكـنْ منـهُ عليـهِ تنـدُّمُ

وقد رجَّحَ كثيرٌ من الحكماء حقَّ العالم علىٰ حقِّ الوالد ، حتىٰ قال بعض شعرائهم : [من المنسرح]

يـا فـاخـراً للسَّفـاهِ بـالسَّلَـفِ وتـاركـاً للعَـلاءِ والشَّـرَفِ
آبـاءُ أجسـادنـا هُـمُ سَبَـبٌ لأنْ جُعِلْنـا عَـوارضَ التَّلَـفِ
مَـن علَّـمَ النـاسَ كـانَ خيـرَ أبٍ ذاكَ أبـو الـرُّوحِ لا أبـو النُّطَـفِ

ولا ينبغي له : أنْ يبعثَه معرفةُ الحقِّ له علىٰ قبول الشُّبَه منه ، ولا يدعوه تركُ الإعنات له على التقليد فيما أخذ عنه ؛ فإنَّه ربَّما غلا بعضُ الأتباع في عالِمهم حتىٰ يروا أنَّ قوله دليلٌ وإن لم يستدلَّ ، وأنَّ اعتقاده حجّةٌ وإن لم يحتجَّ ، فيفضي بهم الأمر إلى التسليم له فيما أخذوا عنه ، ويؤول به ذلك إلى التقصير فيما يصدر منه ؛ لأنَّه يجتهد بحسَب اجتهاد مَن يأخذ عنه ؛ فلا يبعد أن تبطل تلك المقالةُ إن انفردت ، أو تُخرج أهلَها من عداد العلماء فيما شاركت ؛ لأنَّه قد لا يرىٰ لهم مَن يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه ، فيطالبَهم بما قصَّروا فيه ، فيضعفوا عن إثباته ، ويعجزوا عن نصرته ، فيذهبوا ضائعين ، ويصيروا عجزةً مضعوفين .

ولقد رأيتُ من هٰذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلسٍ حَفْلٍ وقد استدلَّ الخصمُ

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص١١٧) .

عليه بدلالةٍ صحيحة ، فكان جوابه عنها أنْ قال : **هٰذه دلالةٌ فاسدة ، ووجه فسادها** : أنَّ شيخي لم يذكرها ، وما لم يذكره الشيخ . . فلا خير فيه ، فأمسك عنه المستدِلُّ تعجُّباً ؛ **لأنَّ شيخه كان محتشماً وقد حضرت طائفةٌ يرون فيه مثلَ رأي هٰذا الجاهل** ، ثم أقبل المستدِلُّ عليَّ وقال لي : والله ؛ **لقد أفحمني بجهله** .

وصار سائر الناس المبرَّئين من هٰذه الجهالة من بين مستهزِئٍ ومتعجب ، ومستعيذٍ بالله من جهلٍ مُغربٍ ، **فهل رأيت كذلك علماً أدخلَ في الجهلِ ، أو أدلَّ علىٰ قلّة العقل ؟!**

وإذا كان المتعلِّم معتدلَ الرأي فيمَن يأخذ عنه ، متوسِّطَ الاعتقاد فيمَن يتعلَّم منه ، حتىٰ لا يحملُه الإعنات على اعتراض المبكِّتين ، ولا يبعثُه الغلوُّ علىٰ تسليم المقلِّدين . . **برىء المتعلِّم من المَذمَّتَين** ، وسلم العالم من الهُجْنَتَين .

وليس كثرة السؤال فيما ألبس إعناتاً ، ولا قبول ما صحَّ في النفس تقليداً ، وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **العلمُ خزائنُ ، ومفاتيحُه المسألةُ** ، فاسألوا رحمَكم الله ، **فإنَّما يُؤجَرُ في العلم ثلاثة** : القائلُ ، والمستمعُ ، والآخذُ »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **هلاّ سألُوا إذْ لم يعلموا ؛ فإنَّما شِفاءُ العِيِّ السؤالُ ؟!** »[2] فأمر صلى الله عليه وسلم بالسؤال ، وحثَّ عليه .

ونهىٰ آخرين عن السؤال وزجر عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **أنهاكم عن قيلَ وقالَ ، وكثرةِ السؤالِ** ، وإضاعةِ المالِ »[3] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **إياكم وكثرةَ السؤال ؛ فإنَّما** هلك مَنْ قبلَكم بكثرة السُّؤالِ »[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ١٩٢) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٦١) عن سيدنا علي كرم الله وجهه .
(٢) رواه أبو داوود (٣٣٧) ، وابن ماجه (٥٧٢) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .
(٣) رواه البخاري (٦٤٧٣) ، ومسلم (٥٩٣) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .
(٤) رواه مسلم (١٣٣٧) ، والترمذي (٢٦٧٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .

وليس هٰذا مخالفاً للأول ؛ وإنَّما أمر بالسؤال مَن قَصد به عِلْمَ ما جَهِل ، ونهىٰ عنه مَن قصدَ به إعناتَ ما سمِع ، وإذا كان السؤال في موضعه . . أزال الشكوكَ ، ونفى الشُّبَهَ .

وقد قيل لابن عباسٍ رضي الله عنهما : بمَ نلتَ هٰذا العلمَ ؟ فقال : (بلسانٍ سَؤُولٍ ، وقلب عَقُولٍ)[1] .

وروىٰ نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « حُسنُ السؤالِ نصفُ العلم »[2] .

وأنشد المبرّد عن أبي سليمان الغَنَويّ : [من الكامل]

فسَلِ الفقيهَ تكنْ فقيهاً مثلَهُ ... لا خيرَ في علمٍ بغير تدبُّرِ
وَإذا تعسَّرَتِ الأمورُ فأَرْجِها ... وعليكَ بالأمر الذي لم يَعسُرِ

وليأخذ المتعلِّمُ حظَّه ممَّن وجد طَلِبتَه عنده من نبيهٍ وخامل ، ولا يطلب الصِّيتَ وبُعدَ الذِّكر باتِّباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفعُ بغيرهم أعمَّ ، إلاَّ أن يستويَ النفعان ، فيكون الأخذُ عمَّن اشتهر ذكرُه وارتفع قدرُه أَولىٰ ؛ لأنَّ الانتساب إليه أجمل ، والأخذ عنه أشهر .

وقد قال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم يشهَرْكَ علمُكَ لم تجِدْ ... لعلمِكَ إنساناً منَ الناسِ يقبَلُهْ
وإنْ صانَكَ العلمُ الذي قد حملتَهُ ... أتاكَ له مَن يجتنيه ويحمِلُهْ

وإذا قرُبَ منك العلمُ . . فلا تطلبْ ما بعُدَ ، وإذا تسهَّل عليك من وجهٍ . . فلا تطلبْ ما صعُبَ ، وإذا حمدت مَن خبرتَه . . فلا تطلب مَن لم تخبره ؛ فإنَّ العدول عن القريب إلى البعيد عناء ، وترك الأسهل بالأصعب بلاء ، والانتقال عن المخبور إلىٰ غيره خطر .

---

(١) رواه الإمام أحمد ابن حنبل في « فضائل الصحابة » (١٩٠٣) ، والجريري في « الجليس الصالح » (٣/ ٣٤٨) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٤٨) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٦٤) .

(٣) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص١٧٥) .

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**عُقبى الأخرق مَضرَّة ، والمتعسِّف لا تدوم له مَسرّة**)[1] .

وقال بعض الحكماء : (**القصدُ أسهلُ من التعسُّف ، والكفُّ أودعُ من التكلُّف**)[2] .

وربَّما تتبَّعتْ نفسُ الإنسان مَنْ بعد عنه استهانةً بمَن قرب منه ، وطلبَ ما صعب احتقاراً لما سهل عليه ، وانتقل إلىٰ مَن لم يخبره ملَلاً لمَن خبره ، فلا يدرك محبوباً ، ولا يظفر بطائل .

وقد قالت العرب في أمثالها : (**إنَّ العالمَ كالحَمَّةِ ؛ يأتيها البُعَداءُ ، ويزهد فيها القُرَباءُ**)[3] .

وأنشدني بعض شيوخنا لمسبِّح بن حاتم : [من الخفيف]

لا تـرىٰ عـالمـاً يحُـلُّ بقـومٍ   فيُحلُّـوه غيـرَ دارِ الهَـوانِ
قلَّمـا تُـوجَـدُ السـلامـةُ والصحّـ   ـةُ مجمـوعتَيـنِ فـي إنسـانِ
فـإذا حَلَّتـا مكـانـاً سحيقـاً   فهُمـا فـي النُّفـوسِ معشُـوقتـانِ
هـٰذهِ مكّـةُ المَنيعـةُ بيـتُ اللـ   ـهِ يَسعـىٰ لحَجِّهـا الثَّقَـلانِ
وتـرىٰ أزهـدَ البَـريّـةِ فـي الحَـجِّ   لهـا أهلَهـا لقُـربِ المَكـانِ

---

(١) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٢/ ٥٤٥) .

(٢) أورده في « الموشىٰ » (ص٢١٤) .

(٣) أورده القاسم بن سلام في « الأمثال » (ص٢٠٧) ، والحمّة : العين الحارّة يستشفي بها الأعلاّء والمرضىٰ .

فَصْلٌ
[في آداب العالم]

فأمّا ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التي هي بهم أليقُ ، ولهم ألزمُ . . فالتواضعُ ، ومجانبة العُجْب ؛ لأنَّ التواضعَ عَطوفٌ ، والعُجْبَ منفِّرٌ ، وهو بكلِّ أحدٍ قبيحٌ ، وبالعلماء أقبحُ ؛ لأنَّ الناس بهم يقتدون .

وكثيراً ما يتداخلهم الإعجاب ؛ لتوحُّدهم بفضيلة العلم ، ولو أنهم نظروا حقَّ النظر ، وعملوا بموجَب العلم . . لكان التواضعُ بهم أَولىٰ ، ومُجانبةُ العُجْبِ بهم أَحرىٰ ؛ لأنَّ العُجْبَ نقصٌ ينافي الفضلَ ، لا سيَّما مع قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ العُجْبَ لَيأكُلُ الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحطَبَ »[1] ، فلا يفي ما أدركوا من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العُجْب .

وقد روىٰ عبد الله بن عمرٍو رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قليلُ الفقهِ خيرٌ من كثير العبادةِ ، وكفىٰ بالمرء علماً إذا عبدَ اللهَ تعالىٰ ، وكفىٰ بالمرء جهلاً إذا أُعجِب برأيه »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّموا للعلم السكينةَ والحلمَ ، وتواضعوا لمَن تتعلَّمون منه ، ولْيتواضَعْ لكم مَن تعلِّمونه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقومَ علمُكم بجهلكم)[3] .

وقال بعض السلف : (مَن تكبَّر بعلمه وترفَّعَ . . وضعه الله به ، ومَن تواضع بعلمه . . رفعه الله تعالىٰ)[4] .

وعلّةُ إعجابهم : انصرافُ نظرهم إلىٰ كثرة مَنْ دونهم من الجهَّال ، وانحرافُ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٨٦١) من قول يحيى بن معاذ رحمه الله .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٦٩٣) ، والبيهقي في « المدخل » (٤٥٣) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٦٣٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٥١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) من قول ابن المعتز .

نظرهم عمَّن فوقهم من العلماء ؛ فإنَّه ليس مُتناهٍ في العلم إلا وسيجد مَن هو أعلمُ منه بشيء ؛ إذ العلم أكثرُ من أن يحيط به بشرٌ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ يعني : في العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال أهل التأويل : (يعني : فوق كلِّ عالمٍ مَن هو أعلمُ منه ، حتىٰ ينتهي ذلك إلى الله تعالىٰ)[1] .

وقيل لبعض الحكماء : (مَن يعرف كلَّ العلمِ ؟ قال : كلُّ الناس)[2] .

وقال الشعبي : (ما رأيتُ مثلي ، وما أشاءُ أن أَلقىٰ رجلاً أعلمَ منِّي إلا لقيتُه)[3] ، ولم يذكر الشعبيُّ هـٰذا القول تفضيلاً لنفسه فيُستقبحَ منه ، وإنَّما ذكره تعظيماً للعلم عن أن يُحاط به .

فينبغي لمَن علم : أن ينظر إلىٰ نفسه بنقص ما قصَّر فيه ؛ ليسلم من عُجْب ما أدرك منه ، فقد قيل في منثور الحكم : (إذا علمتَ . . فلا تفكِّرْ في كثرةِ مَنْ دونَك من الجهَّال ؛ ولـٰكن انظر مَن فوقك من العلماء)[4] .

وأُنشِدتُ لابن العميد[5] : [من البسيط]

مَن شاء عَيشاً حميداً يستفيدُ به ... في دينـهِ ثـمَّ فـي دنيـاه إقبـالا
فلْينظـرَنَّ إلـىٰ مَـن فـوقَـه أدبـاً ... ولْينظـرَنَّ إلـىٰ مَـن دونَـه مـالا

وقلَّما تجد بالعلم معجَباً ، وبما أدركه منه مفتخراً إلا مَن كان فيه مُقلاًّ ومقصِّراً ؛ لأنَّه يجهل قدره ، ويحسب أنَّه قد نال بالدخول فيه أكثرَه ، فأمّا مَن كان فيه متوجِّهاً ، ومنه مستكثراً . . فهو يعلم من بُعد غايته ، والعجز عن إدراك نهايته ما يصدُّه عن العُجب به .

وقد قال الشعبيُّ : (العلمُ ثلاثة أشبار : فمَن نال منه شبراً . . شمخ بأنفه ،

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/١٣/٣٥) .
(٢) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٤/٣٨٧) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٧٥) ، و« جامع بيان العلم وفضله » (١/٥٣٤) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٧) ، و« زهر الآداب » (١/٣٧٥) من قول ابن المعتز .
(٥) أورد البيتين في « التكملة لكتاب الصلة » (١/٧٩) من شعر ابن العميد ، وهما في « ديوان أبي الفتح البستي » (ص٢٨٤) ، وانظر « يتيمة الدهر » (٤/٣٧٨) .

وظنَّ أنَّه ناله ، ومَن نال الشبرَ الثانيَ . . صغرت إليه نفسه ، وعلم أنّه ما ناله ، وأمّا الشبرُ الثالث . . فهيهات ، لا يناله أحد أبداً)[1] .

ومِمَّا أُنذرك به من حالي : أنني صنَّفتُ في البيوع كتاباً ، جمعتُ فيه ما استطعتُ من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسي ، وكددت فيه خاطري ، حتىٰ إذا تهذَّب واستكمل ، وكدت أُعجَب به ، وتصوَّرت أنني أشدُّ الناس اضطلاعاً بعلمه . . حضرني وأنا في مجلسي أعرابيّان ، فسألاني عن بيعٍ عقداه في البادية علىٰ شروطٍ تضمَّنت أربع مسائل ، لم أعرف لشيءٍ منها جواباً ، فأطرقتُ مفكِّراً ، وبحالي وحالهما معتبِراً .

فقالا : ما عندك فيما سألناك جوابٌ وأنت زعيمُ هٰذه الجماعة ؟!

فقلت : لا .

فقالا : إيهاً لك . وانصرفا .

ثم أتيا مَن قد يتقدَّمه في العلم كثيرٌ من أصحابي ، فسألاه فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما ، وانصرفا عنه راضيَين بجوابه ، مادحَينِ لعلمه ، فبقيت مرتبكاً وبحالهما وحالي معتبِراً ، وإنِّي لَعلىٰ ما كنت عليه في تلك المسائل إلىٰ وقتي .

فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تذلَّل لهما قيادُ النفس ، وانخفض بهما جناح العُجب ؛ توفيقاً مُنحته ، ورشداً أُوتيته ، وحقٌّ علىٰ مَن ترك العُجب بما يُحسن أنْ يدع التكلُّفَ لما لا يحسن ، فقديماً نُهي الناس عنهما ، واستعاذوا باللهِ منهما .

ومن أوضح ذلك بياناً : استعاذةُ الجاحظ في كتاب « البيان » حيث يقول : (اللهمَّ ؛ إنّا نعوذ بك من فتنة القول ؛ كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نحسن ؛ كما نعوذ بك من العجب بما نُحسن ، ونعوذ بك من شرِّ السَّلاطة والهذَر ؛ كما نعوذ بك من شرِّ العِيِّ والحَصَر)[2] .

---

(١) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٣٨٧) .

(٢) البيان والتبيين (١/ ٣) ، والسلاطة : حدة اللسان ، والهذر : كثرة الكلام من غير فائدة .

ونحن نستعيذ اللهَ مثلَ استعاذته ؛ فليس لمَن تكلَّف ما لا يُحسن غايةٌ ينتهي إليها ، ولا حدٌّ يقفُ عنده ، ومَن كان تكلُّفه غير محدود . . فأخلِقْ به أنْ يَضلَّ وأنْ يُضلَّ !!

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَن سُئل فأفتىٰ بغير علم . . فقد ضلَّ وأضلَّ »(١) .

وقال بعض الحكماء : (من العلم ألاَّ تتكلَّمَ فيما لا تعلم بكلامِ مَن يعلم ، فحسبُكَ خجلاً من عقلك أنْ تنطقَ بما لا تفهم) .

ولقد أحسن زيادة بن زيد حيث يقول(٢) : [من الطويل]

إذا ما انتهىٰ عِلْمي تناهيتُ عندَهُ ... أطالَ فأملَىٰ أو تناهَىٰ فأقصرَا
ويُخبِرُني عن غائبِ المرءِ فعلُهُ ... كفَى الفعلُ عمّا غيَّبَ المرءُ مُخبِرَا

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم كلِّه سبيلٌ . . فلا عارَ أن يجهل بعضه ، وإذا لم يكن في جهل بعضه عارٌ . . لم يقبح به أن يقول : (لا أعلمُ) فيما ليس يعلم .

وقد روي أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله ؛ أيُّ البقاعِ خيرٌ ، وأيُّ البقاعِ شرٌّ ؟ فقال : « لا أدري حتىٰ أسألَ جبريلَ »(٣) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (وا بَرْدَها على القلب !! إذا سُئل أحدكم عمّا لا يعلم أن يقول : الله أعلم)(٤) فإنَّ العالمَ مَن عرف أنَّ ما يعلم فيما لا يعلم قليلٌ .

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما .

(٢) البيتان في « خزانة الأدب » (١١/ ١٧٤) ، والأول في « كتاب سيبويه » (٣/ ١٨٥) ، وفي النسخ : (زرارة بن زيد) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٥٩٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه الدارمي في « مسنده » (١٨١) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٣٦٢) .